السؤال

هل يقبل الله أعمال الزناة أم يجعلها هباءً منثوراً ، وهل الزنا يحبط العمل ، هل للزاني المُصر على الزنا حسنات عند ربه ، أم أن حسناته لا ترفع حتى يتوب إلى الله ، هل يقبل الله صيام وزكاة وصلاة الزاني ، علماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث : (تفتح أبواب السماء نصف الليل ، فينادي منادٍ : هل من داع فيستجاب له ، هل من سائل فيعطى ، هل من مكروب فيفرج عنه ، فلا يبقى مسلم يدعو بدعوة إلا استجاب الله عز وجل له ، إلا زانية تسعى بفرجها أو عشاراً) وفي الحديث السابق ... فيجعلها الله هباءً منثوراً ... إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها ؟ أرجو منكم التوضيح ، وهل ما ذهبتم إليه صحيح .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

من الثوابت التي يقرها القرآن الكريم ، ويتفق عليها أهل السنة ، أن المعاصي والكبائر لا تحبط حسنات المسلم جميعها ، وأنه ليس ثمة ما يحبط عمل المسلم بالكلية إلا الكفر والشرك .

دل عليه قوله تعالى : (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) البقرة/217 .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - كما في "مجموع الفتاوى" (10/321-322) :

"وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار ، ويشفع فيهم ، وأن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات ؛ ولكن قد يحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة ، ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر ، كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة ، فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغي بها رضا الله أثابه الله على ذلك وإن كان مستحقاً للعقوبة على كبريته . وكتاب الله عز وجل يفرق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضاً ، وبين حكم الكفار في "الأسماء والأحكام" ، والسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة يدل على ذلك ، وعند أهل السنة والجماعة يُتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصاً لله موافقاً لأمر الله ، فمن اتقاه في عمل تقبله منه وإن كان عاصياً في غيره ، ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعاً في غيره " انتهى باختصار .

والحديث المذكور في السؤال ، وهو حديث تُوْبَانِ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : (لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا . قَالَ تُوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا ، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ .

قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا .
 رواه ابن ماجه في سننه (رقم/4245) ، والرويانى فى "المسند" (1/425) ، والطيرانى فى "الأوسط" (5/46) و"الصغير" (1/396) و"مسند الشاميين" (رقم/667) ، والديلمى فى "مسند الفردوس" (7715) ، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (505) .
 وهو من الأدلة على الأصل الذى ذكرناه ، من أن بعض السيئات قد تحبط قدرا من حسنات المرء ، وأجر علمه الصالح .
 وانظر تفصيل ما ذكرناه فى المسألة فى جواب السؤال رقم (81874) .

وأما الحديث الثانى الذى ذكرته ، فهو حديث عثمان بن أبى العاص الثقفى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
 (تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ نِصْفَ اللَّيْلِ فَيُنَادِي مُنَادٍ : هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابُ لَهُ ؛ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى ؛ هَلْ مِنْ مَكْرُوبٍ فَيُفْرَجَ عَنْهُ ؛ فَلَا يَبْقَى مُسْلِمٌ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ إِلَّا زَانِيَةً تَسْعَى بِفَرْجِهَا أَوْ عَشَارًا) .

رواه الطبرانى فى "المعجم الكبير" (9/59) ، وفى "المعجم الأوسط" (3/154) وقال الهيثمى فى "مجمع الزوائد" (10/156) :
 رجاله رجال الصحيح . وقال الألبانى فى "السلسلة الصحيحة" (1073) : إسناده صحيح .
 على أن هذا ليس فيه حبوط عمله ، ولكن فيه : عدم قبول دعاء الزانى المصر على زناه ، وهذا معنى صحيح ، فإن الكبائر من
 موانع قبول الدعاء ، وكيف يستجيب الله عز وجل لمن هو باق على المعصية لا ينزع عنها ولا يتوب منها !

والله أعلم .